غذاء الروح من لا تحزن

من إبداعات الشيخ عائض القرني

اختيار

أبو أنس عبدالله

الطبعة الثانية

١٤٤١ هـ

مزيدة ومنقحة

هذا الكتاب

دراسةٌ جادةٌ أخَّاذةٌ مَسؤولةٌ، تُعنى بمعالجةِ الجانبِ المَأسَاوي من حياةِ البَشريةِ، جَانب الاضطِرابِ والقَلقِ، وفَقدِ الثقةِ، والحِيرة، والكآبةِ، والتشاؤمِ، والهمِّ والغمِّ، والحُزنِ، والكَدرِ، واليَأس، والقنوطِ، والإحباطِ.

وهو حلٌّ لمُشكلاتِ العَصر عَلى نورٍ من الوَحِي، وهَدي مِن الرِّسالة، وموافقةٍ مع الفطرةِ السويَّةِ، والتجاربِ الراشدةِ، والأمثالِ الحيَّةِ، والقَصَصِ الجذَّابِ، والأَدبِ الخلاَّبِ، وفيه نُقولاتٌ عن الصَّحابة الأبْرَار رضي الله عنهم، والتَّابِعين الأخيَارِ، ووصَايا جَهابذةِ الأطباءِ، ونصَائحِ الحُكماءِ، وتوجيهاتِ العُلماء.

إنَّ هَذا الكِتاب مَزيجٌ مُرتَّبٌ، وجُهدٌ مُهذَّبٌ مُشذَّبٌ. وهُو يَقولُ لكَ باختِصَار:

اسعدْ واطمئنَّ وأبشرْ وتفاءلْ ولا تحزن

يَا اللهُ

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾

إذا اضطَرب البحرُ، وهَاج الموجُ، وهبَّتِ الرِّيحُ، نَادى أصحَابُ السَّفينةِ: يا الله.

إذا ضلَّ الحَادي في الصَّحراءِ ومَال الرَّكبُ عن الطَّريقِ، وحَارتِ القَافلةُ في السَّيرِ، نَادوا: يا الله.

إذا وَقعت المُصيبةُ، وحلَّتِ النَّكبةُ وجثَمتِ الكارثةُ، نَادى المُصابُ، المَنكوبُ: يا الله.

إذا أُوصِدتِ الأبوابُ أمَام الطَّالبين، وأُسدِلتِ السُّتورُ في وجوهِ السائلين، صَاحوا: يا الله.

إذا بَارتِ الحِيلُ، وضاقتِ السُّبُلُ، وانتهتِ الآمالُ، وتقطَّعتِ الحِبالُ، نادوا: يا الله.

إذا ضَاقتْ عليكَ الأرضُ بما رَحُبتْ، وضاقتْ عليكَ نفسُكَ بما حَملتْ، فاهتفْ: يا الله.

إليه يصعدُ الكلِمُ الطيبُ، والدُّعاءُ الخالصُ، والهاتفُ الصَّادقُ، والدَّمعُ البريءُ، والتفجُّع الوالِهُ.

إليه تُمدُّ الأكُفُّ في الأسْحارِ، والأيَادي في الحَاجات، والأَعينُ في الملمَّاتِ، والأسئلةُ في الحوادث.

باسمهِ تشدو الألسنُ، وتستغيثُ، وتلهجُ، وتنادي، وبذكرهِ تطمئنُّ القلوبُ، وتسكنُ الأرواحُ، وتهدأُ المشاعر، وتَبردُ الأعصابُ، ويثوبُ الرُّشْدُ، ويستقرُّ اليقينُ.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

اللهُ: أَحسنُ الأسماءِ وأجملُ الحُروفِ، وأصدقُ العباراتِ، وأثمنُ الكلماتِ.

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ ؟!.

اللهُ: فإذا الغِنى والبقاءُ، والقوةُ والنُّصرةُ، والعِزُّ والقُدرةُ، والحِكْمَةُ.

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

اللهُ: فإذا اللطفُ والعنايةُ، والغَوْثُ والمَددُ، والوُدُّ والإحسَان.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾.

اللهُ: ذو الجَلالِ والعَظمةِ، والهَيبةِ والجَبروتِ.

اللهم فاجعلْ مكان اللوعةِ سَلْوةٌ، وجَزاء الحُزنِ سروراً، وعند الخوفِ أمنـًا.

اللهم أبردْ لاعِج القلبِ بثلجِ اليقينِ، وأطفئْ جَمْر الأرواحِ بماءِ الإيمانِ.

يا ربُّ، ألق على العيونِ السَّاهرةِ نُعاسًا أَمَنةً مِنك، وعلى النفوسِ المضْطربةِ سَكينة، وأثبْها فتحًا قريبًا.

يا ربُّ، اهدِ حَيارى البصائرْ إلى نورِكْ، وضُلاَّل المناهجِ إلى صِراطكْ، والزَّائغينَ عن السَّبيل إلى هُداك.

اللهم أزِل الوسْاوسَ بفجْرٍ صادقٍ من النورِ، وأزهقْ باطَل الضَّمائرِ بفيْلقٍ من الحقِّ، ورُدَّ كيد الشيطانِ بمددٍ من جنودِ عوْنِك مُسوِّمين.

اللهم أذهبْ عنَّا الحَزن، وأزلْ عنا الهمَّ، واطردْ من نفوسنِا القَلق.

نعوذُ بك من الخوْفِ إلا مِنْك، والرُّكونِ إلا إليكَ، والتوكلِ إلا عليكَ، والسؤالِ إلا منكَ، والاستعانِة إلا بكَ، أنتَ وليُّنا، نِعم المَولى، ونِعم النَّصير.

كُن سَعِيداً

المَعنى: أن تذْكر نِعَم اللهِ عليكَ فَإذا هِي تغْمُرُك مِنْ فوقِك ومِنْ تحتِ قَدميْك، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

صِحَّةٌ في بَدنٍ، أَمنٌ في وطنٍ، غِذاءٌ وكِساءٌ، هواءٌ وماءٌ، لديكَ الدُّنيا وأنتَ ما تَشعرُ، تملكُ الحياةَ وأنتَ لا تعلمُ، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

عِندك عَينَان، ولِسانٌ وشَفتانِ، ويَدانِ ورِجلانِ، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

هَلْ هِي مسألةٌ سهلةٌ أنْ تمشي على قدميْك، وقد بُتِرتْ أقدامٌ؟! وأنْ تَعتمِد على ساقيْكَ، وقد قُطِعتْ سُوقٌ؟! أحقيقٌ أن تَنام مِلء عَينيك وقدْ أطَار الألمُ نومَ الكثيرِ؟! وأنْ تملأ مَعِدتك من الطَّعامِ الشهيِّ، وأن تَكْرَعَ مِن الماءِ البارِدِ، وهُناك مَن عُكِّر عليهِ الطعامُ، ونُغِّص عليهِ الشَّرابُ بأمراضٍ وأسْقامٍ ؟!.

تَفكَّر في سمْعِك وقدْ عُوفِيت من الصَّمم، وتأملْ في نظرِك وقدْ سَلمت من العَمى، وانظر إلى جِلْدِك وقد نجوْت من البَرصِ والجُذامِ، والمحْ عقلكَ وقَدْ أنعم عليكَ بحضورهِ ولم تُفجعْ بالجنونِ والذُّهولِ.

مَا مَضى فَات

تذكُّرُ المَاضي والتفاعلُ معهُ واستحضارُهُ، والحزنُ لمآسيهِ حُمقٌ وجُنونٌ، وقَتلٌ للإرادةِ، وتبديدٌ للحياةِ الحاضرةِ.

إن ملفَّ الماضي عند العُقلاء يُطْوَى ولا يُرْوى، يُغْلَقُ عليه أبداً في زِنزانةِ النسيانِ، يُقيَّدُ بحبالٍ قوَّيةٍ في سِجنِ الإهمالِ فَلا يخرجُ أبداً، ويُوْصَدُ عليه فلا يَرى النورَ؛ لأنه مَضى وانتهَى، لا الحُزنُ يعيدُهَ، ولا الهمُّ يصلحهُ، ولا الغمَّ يصحِّحُهُ، ولا الكدرُ يحييهِ، لأنُه عدمٌ، لا تعشْ في كَابوس المَاضي، وتحتَ مظلةِ الفائتِ، أنقذْ نفسكَ من شبحِ المَاضي، القِراءةُ في دفتر المَاضي ضياعٌ للحاضرِ، وتمزيقٌ للجهدِ، ونسْفٌ للساعةِ الراهنةِ، ذَكر اللهُ الأُمم وما فَعلتْ ثم قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، انتهى الأمرُ وقُضِي، ولا طَائل مِن تشريحِ جُثة الزمانِ، وإعادةِ عجلةِ التاريخِ.

إنَّ الناسَ لا ينظرونَ إلى الوراءِ ولا يلتفتونَ إلى الخلفِ؛ لأنَّ الرِّيح تتجهُ إلى الأمامِ والماءُ ينحدرُ إلى الأمامِ، والقافلةُ تسيرُ إلى الأمامِ، فلا تخالفْ سُنَّة الحياةِ.

يَومكَ يَومكَ

إذا أصبحتَ فَلا تنتظرَ المَساء، اليَوم فحسْبُ ستعيشُ، فلا أمْس الذي ذهبَ بخيرِهِ وشرِهِ، ولا الغَد الذي لمْ يأتِ إلى الآن.

اليومُ الذي أظلَّتْكَ شمسُه، وأدركك نهارُهُ هو يومُك فحسْبُ، عمرُك يومٌ واحدٌ، فاجعلْ في خلدِك العَيش لِهذا اليومِ وكأنك ولدَّت فيهِ وتموتُ فيهِ، حينها لا تتعثرُ حياتُك بين هاجسِ الماضِي وهمِّهِ وغمِّهِ، وبين توقعِ المستقبلِ وشبحِهِ المخيفِ وزحفِهِ المرعبِ، لليومِ فقطْ اصرفْ تركيزكَ واهتمامكَ وإبداعكَ وكدَّك وجِدَّك، فلهذا اليومِ لابد أن تُقدم صلاةً خاشعةً، وتلاوةً بتدبرٍ، واطلاعاً بتأملٍ، وذِكْراً بحضورٍ، واتزاناً في الأمورِ، وحُسْناً في خلقٍ، ورِضاً بالمقسومِ، واهتماماً بالمظهرِ، واعتناءً بالجسمِ، ونفعاً للآخرين.

إذا أكلت خُبزاً حاراً شهياً هذا اليَوم، فهل يضُرُّك خبزُ الأمسِ الجافِّ الرديء، أو خبزُ غدٍ الغائبِ المنتظرِ.

لليوم فقطْ، سأعيشُ فأجتهدُ في طاعةِ ربِّي، وتأديةِ صَلاتي على أكملِ وجهِ، والتزودِ بالنوافلِ، وتعاهدِ مِصحفي، والنظرِ في كُتبي، وحِفظِ فائدةٍ، ومطالعةِ كتابٍ نافعٍ.

لليومِ فقطْ، سأعيشُ، فأغرسُ في قلبي الفضيلةَ، وأجتثُّ منه شجرة الشرِّ، بغصونِها الشائكةِ، من كِبْرٍ وعُجبٍ ورياءٍ وحسدٍ وحقدٍ وغِلٍّ وسوءِ ظنٍّ.

لليوم فَقط، سَوف أعيشُ فأنفعُ الآخرين، وأُسدي الجميلَ إلى الغيرِ، أعودُ مريضـًا، أشيِّعُ جنازةً، أدُلُّ حيران، أُطعمُ جائعـًا، أفرِّجُ عن مكروبٍ، أقفٌ مع مظلومٍ، أشفعُ لضعيفٍ، أواسي منكوبـًا، أكرمُ عالمـًا، أرحمُ صغيراً، أُجِلُّ كبيراً.

لليوم فقط، سأعيشُ، فيا ماضٍ ذهب وانتهى اُغربْ كشمِسك، فَلن أبكِي عليكَ ولنْ تَراني أقفُ لأتذكركَ لحظةً، لأنكَ تَركتنا وهَجرتنا وارتحلْت عنَّا ولن تَعود إلينا أبد الآبدين.

ويا مستقبلُ، أنْت في عالمِ الغيبِ فلنْ أتعاملَ مع الأحلامِ، ولنْ أبيعَ نَفسي مع الأوهَام ولن أتعجَّلَ مِيلاد مفقودٍ، لأنَّ غداً لا شيء؛ لأنه لم يُخلق ولأنه لم يَكن مَذكوراً.

يومك يومُك أيها الإنسانُ، أروعُ كلمةٍ في قاموسِ السعادةِ، لمن أراد الحياة في أبهى صورِها وأجملِ حُلِلها.

أُترِكِ المُسْتَقْبلَ حَتى يَأتيَ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، لا تستبقِ الأحداث، إن إعطاء الذهنِ مساحةً أوسع للتفكيرِ في المستقبلِ وفتحِ كتابِ الغيبِ ثم الاكتواءِ بالمزعجاتِ المتوقعةِ ممقوتٌ شرعًا؛ لأنه طولُ أملٍ، وهو مذمومٌ عقلاً؛ لأنه مُصارعةٌ للظلِّ.

إن كثيراً من هذا العالم، يُتوقَّع في مُستقبلِهِ: الجوعَ، والعُري، والمرضَ، والفقرَ، والمصائبَ، وهذا كلُّه من مُقرراتِ مدارسِ الشيطانِ.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾.

كثيرٌ همْ الذين يبكون؛ لأنهم سوف يجوعون غداً، وسَوف يَمرضون بعد سنةٍ، وسوف ينتهي العالمُ بعد مائةِ عام.

إنَّ الذي عُمرُه في يد غيره لا ينبغي لهُ أن يُراهن على العدمِ، والذي لا يدرِي متى يموتُ لا يجوزُ لهُ الاشتغالُ بشيءٍ مفقودٍ لا حَقيقة له.

أُترك غداً حتى يأتيكَ، لا تَسأل عن أخبارِه، لا تَنتظر زُحوفه، لأنك مشغولٌ باليوم.

كَيف تُواجِه النَّقد الآثِم ؟

الرُّقعاءُ السُّخفاءُ سبُّوا الخَالق الرَّازق جلَّ في عُلاه، وشَتموا الواحدَ الأحدَ لا إلـهَ إلا هـوَ، فمـاذا أتوقعُ أنا وأنتَ ونحنُ أهل الحَيف والخَطأ، إنك سوف تواجهُ في حياتِك حَرْبـًا! ضَرُوسـًا لا هوادةَ فيها، مِن النقدِ الآثمِ المُر، ومِن التَّحطيم المَدروسِ المَقصودِ، ومِن الإهانةِ المتعمدةِ، مـادامَ أنـكَ تُعطي وتبني وتؤثرُ وتسطعُ وتلمعُ، ولن يَسكت هؤلاءِ عنكَ حتى تتخذَ نفَقـًا في الأرضِ، أو سلمـًا في السماءِ فتفـرَّ منهم، أمـا وأنـت بين أظهـرِهِمْ، فـانتظرْ منهمْ مـا يسـوؤك ويُبكي عَينكَ، ويُـدمي مُقلتكَ، ويقضُّ مَضجعكَ. إن الجَالس على الأرضِ لا يسقطُ، لكنَّهم يَغضبون عليكَ لأنكَ فُقْتَهمْ صلاحـًا، أو علمـًا، أو أدبـًا، أو مالاً.

إنك إنْ أصغيت لكلامِ هـؤلاءِ وتفاعلـتَ معـه، حققـت أمنيـتهُم الغَاليـة في تَعكيرِ حياتِـك وتكـديرِ عُمرك، ألا فاصفح الصَّفْح الجميل، ألا فأعرضْ عنهمْ ولا تكُ في ضيقٍ مما يمكرون.

إن نقدهمُ السخيف ترجمةٌ محترمةٌ لك، وبقدرِ وزنِك يكُون النقدُ الآثمُ المفتعلُ.

إنك لنْ تستطيع أن تغلق أفـواه هـؤلاءِ، ولـنْ تسـتطيع أن تَعتقـل ألسِـنتهم لكنـك تسـتطيعُ أن تـدفن نقدهُم وتجنِّيهم بتجَافيك لهم، وإهمالكَ لشأنهمْ، واطِّراحِكَ لأقوالِهِم!. ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾.

لا تَنتَظِرْ شُكْراً مِن أَحَدٍ

خَلق اللهُ العبادَ ليذكروهُ ورزق اللهُ الخَليقة ليشكروهُ، فعبد الكثيرُ غيره، وشكرَ الغالبُ سواه، لأنَّ طَبيعة الجحودِ والنُّكرانِ والجَفاءِ وكُفْرانِ النِّعم غالبةٌ على النُّفوس، فلا تُصْدمْ إذا وَجدت هؤلاءِ قد كَفروا جَميلك، وأحْرَقوا إحسَانك، ونَسوا معروفَك، بل ربما ناصَبوك العِداءَ، ورَموك بمَنجنيق الحِقدِ الدَّفين، لا لشيءٍ إلا لأنكَ أحسنتَ إليهِم.

﴿وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

ألا فليهدأ الذين احترقت أوراقُ جميلِهمْ عند منكوسي الفِطرِ، ومحطَّمي الإراداتِ، وليهنئوا بعوضِ المثوبةِ عند من لا تَنفدُ خزائنُه.

إن هذا الخطاب الحارَّ لا يدعوك لتركِ الجميلِ، وعدمِ الإحسانِ للغير، وإنما يوطِّنُك على انتظار الجحودِ، والتنكرِ لهذا الجميلِ والإحسانِ، فلا تبتئس بما كانوا يصنعون.

اعمل الخير لِوجْهِ اللهِ ؛ لأنك الفائزُ على كل حالٍ، ثمَّ لا يَضرك غَمْطُ من غَمطك، ولا جحودُ من جحدك، واحمدِ الله لأنك المحسنُ، واليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

الإحسَانُ إلَى الآخَرينَ انشِراحٌ للصَدرِ

الجميلُ كاسمِهِ، والمعروفُ كرسمِهِ، والخيرُ كطعمِهِ. أولُ المستفيدين من إسعادِ النَّاسِ همُ المتفضِّلون بهذا الإسعادِ، يجنون ثمرتهُ عاجلاً في نفوسهِمْ، وأخلاقِهم، وضمائِرِهِم، فيجدون الانشراح والانبساط، والهدوء والسكينة.

أعطِ محروماً، أُنصر مَظلوماً، أنقِذْ مكروباً، أَطعمْ جائعاً، عِدْ مريضاً، أَعنْ منكوباً، تجدِ السعادة تغمرُك من بين يديْك ومنْ خلفِك.

إنَّ فعلَ الخيرِ كالطيب ينفعُ حاملهُ وبائعه ومشتريهُ، وعوائدُ الخيرِ النفسيَّة عقاقيرُ مباركةٌ تُصرفُ في صيدليةِ الذي عُمِرتْ قلوبُهم بالبِّر والإحسان.

يا منْ تُهدِّدهُمْ كوابيسُ الشَّقاءِ والفَزع والخوفِ هلموا إلى بستانِ المعروفِ وتشاغلوا بالآخرين، عطاءً وضيافةً ومواساةً وإعانةً وخدمةً وستجدون السعادة طعماً ولوناً وذوقاً.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

قَضَاءٌ وقَدَرُ

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾.

جفَّ القلمُ، رُفعتِ الصحفُ، قضي الأمرُ، كتبت المقادير.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

ما أصابك لم يكنْ لِيُخطِئك، وما أخطأكَ لم يكنْ لِيُصيبك.

إن هذه العقيدة إذا رسختْ في نفسك وقرَّت في ضميرِك صارتْ البليةُ عطيةً، والمِحْنةُ مِنْحةً، وكلُّ الوقائع جوائز وأوسمةً، قال ﷺ:«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً، يُصِبْ مِنْهُ».

فلا يصيبُك قلقٌ من مرضٍ أو موتِ قريبٍ، أو خسارةٍ ماليةٍ، أو احتراقِ بيتٍ، فإنَّ الباري قد قدَّر والقضاءُ قد حلَّ، والاختيارُ هكذا، والخِيرةُ للهِ، والأجرُ حصل، والذنبُ كُفِّر.

هنيئًا لأهلِ المصائب صبرهم ورضاهم عن الآخذِ، المعطي، القابضِ، الباسط.

﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾.

ولن تهدأ أعصابُك وتسكن بلابلُ نفسِك، وتذْهب وساوسُ صدْرِك، حتى تؤمن بالقضاءِ والقدرِ، جفَّ القلمُ بما أنت لاقٍ فلا تذهبْ نفسُك حسراتٍ.

لا تظنَّ أنه كان بوسعِك إيقافُ الجِدار أن يَنهار، وحبْسُ الماءِ أنْ ينْسكِبُ، ومَنْعُ الريحِ أن تهبَّ، وحِفظُ الزُّجاج أن ينكسرَ، هذا ليس بصحيحٍ على رَغمي ورَغمك، وسوف يقعُ المقدورُ، وينْفُذُ القضاءُ، ويحِلُّ المكتوبُ.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

استسلمْ للقدر قبْل أن تطوَّق بجيش السُّخْط والتذمُّر والعويل، اعترفْ بالقضاءِ قبْل أن يدهمك سَيْلُ النَّدمِ.

إذاً فليهدأ بالُك إذا فعلت الأسباب، وبذلت الحِيل، ثم وقع ما كنت تحذرُ، فهذا هو الذي كان ينبغي أن يقع، ولا تقُلْ: « لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ».

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

يا إنسانُ بعد الجُوع شِبعٌ، وبعْدَ الظَّمأ رِيٌّ، وبعْدَ السَّهرِ نوْمٌ، وبعْدَ المَرض عافيةٌ.

سوف يصلُ الغائبُ، ويهتدي الضالُّ، ويُفكُّ العاني، وينقشعُ الظلامُ ... .

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾.

بشَّر الليل، بصبح صادق يطاردُهُ على رؤوسِ الجبال، ومسارب الأوديةِ.

بشِّر المهمومَ بِفرجٍ مفاجئ يصِلُ في سرعةِ الضَّوْءِ، ولمْحِ البصرِ.

بشِّرِ المنكوب بلطف خفيٍّ، وكفٍ حانيةٍ وادعةٍ.

إذا رأيت الصحراء تمتدُّ وتمتدُّ، فاعلم أنَّ وراءها رياضًا خضراء وارفةَ الظِّلالِ.

إذا رأيت الحَبْل يشتدُّ ويشتدُّ، فاعلمْ أنه سوف يَنْقطِعُ.

مع الدمعةِ بسمةٌ، ومع الخوفِ أمْنٌ، ومع الفَزَعِ سكينةٌ.

النارُ لا تحرقُ إبراهيم الخليلِ، لأنَّ الرعايةَ الربانيَّة فَتَحتْ نَافِذَةَ:

﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

البحرُ لا يُغْرِقُ كَلِيمَ الرَّحْمَنِ، لأنَّ الصَّوْتَ القويَّ الصادق نَطَقَ بـ:

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

المعصومُ في الغارِ بَشَّرَ صاحِبهُ بأنه وحْدَهْ جلَّ في عُلاهُ معنا؛ فنزل الأمْنُ والفتُح والسكينة.

إن عَبيد ساعاتِهم الراهنةِ، وأرِقاءَ ظروفِهِمُ القاتمةِ لا يرَوْنَ إلَّا النَّكَدَ والضِّيقَ والتَّعاسةَ، لأنهم لا يَنظرون إلَّا إلى جِدار الغُرفةِ وباب الدَّارِ فَحَسْبُ.

ألا فلْيَمُدُّوا أبصارَهُمْ وراء الحُجُبِ وليُطْلِقُوا أعنة أفكارِهِمْ إلى ما وراء الأسوارِ.

إذاً فلا تضِقْ ذَرعـًا فمن المُحالِ دوامُ الحالِ، وأفضلُ العِبادِةِ انتظارُ الفرجِ.

الأيامُ دُولٌ، والدهرُ قُلَّبٌ، والليالي حُبَالى، والغَيبُ مستورٌ، والحَكيمُ كلَّ يوم هو في شأنٍ، ولعلَّ الله يُحْدِثُ بعد ذلك أمراً، وإن مع العُسْرِ يُسْراً، إن مع العُسْرِ يُسْراً.

اِصْنَع مِن الليمُونِ شَرَابـًا حُلواً

الذكيُّ الأريبُ يحوِّلُ الخَسائر إلى أرباحٍ.

والجاهلُ الرِّعْديدُ يجعلُ المُصيبة مُصيبتينِ.

طُرِدَ الرسولُ ﷺ من مكةَ فأقامَ في المدينةِ دولةً، ملأتْ سَمْع التاريخِ وبصرهُ.

إذا داهمتك داهيةٌ فانظرْ في الجانبِ المُشرِقِ منها.

وإذا ناولك أحدُهمْ كُوب لَيمونٍ فأضفْ إليهِ حَفْنَةً من سُكَّر.

وإذا أَهدى لك ثُعبانـًا فخذْ جلْدَهُ الثمين واتركْ باقيه.

وإذا لدغتْك عقربٌ فاعلم أنه مَصلٌ واقٍ ومناعةٌ حَصينة ضِد سُمِّ الحياتِ.

تكيَّف في ظرفكِ القَاسي، لِتُخرج لنا منهُ زهْراً ووَرْداً وياسمينـًا.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾.

الإيمَانُ هُو الحَيَاةُ

الأشقياءُ بكلِّ معاني الشَّقاءِ همُ المُفلسون من كنوزِ الإيمانِ، ومن رصيدِ اليقينِ، فهمْ أبداً في تعاسةٍ وغضبٍ ومهانةٍ وذِلَّةٍ.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

لا يُسعدُ النفس ويُزكِّيها ويُطهرُها ويُفرحُها ويُذهبُ غَمَّها وهمَّها وقَلقها إلَّا الإيمانُ بالله ربِّ العالمين، لا طَعم للحياةِ أصلاً إلاَّ بالإيمانِ.

وبقدرِ إيمانِك قوةً وضعفًا، حرارةً وبرودةً، تكون سعادتُك وراحتُك وطمأنينتُك.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه الحياةُ الطيبةُ هي استقرارُ نفوسِهم لَحُسْنِ موعودِ ربِّهم، وثباتُ قلوبِهم بحبِّ باريهم، وطهارةُ ضمائرِهم من أوضَارِ الانحرافِ، وبرودُ أعصابِهِم أمام الحوادثِ، وسكينةُ قلوبِهم عند وقْعِ القضاءِ، ورِضاهم في مَواطن القَدَر، لأنهم رضُوا باللهِ ربًا وبالإسلام دِينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًا ورسولاً.

اِجْنِ العَسَل ولا تَكْسُرِ الخَليَّة

الرِّفقُ ما كان في شيءٍ إلاَّ زانهُ، وما نُزع من شيءٍ إلَّا شانُه.

اللينُ في الخطاب، البسمةُ الرائقةُ على المُحيا، الكلمةُ الطيبةُ عند اللقاءِ، هذه حُلَلٌ منسوجةٌ يرتديها السعداءُ.

وهي صِفاتُ المؤمنِ، كالنحلة تأكلُ طيِّبًا وتصنعُ طيِّبًا، وإذا وقعتْ على زهرةٍ لا تكسرُها ؛ لأنَّ الله يعطي على الرفقِ، ما لا يعطي على العنفِ.

إنَّ مِن الناسِ من تشْرَئِبُّ لقدومِهِمُ الأعناقُ، وتشخصُ إلى طلَعاتِهمُ الأبصارُ، وتحييهمُ الأفئدةُ وتشيِّعُهُمُ الأرواحُ، لأنهم مُحبون في كلامهِم، في أخذهم وعطائِهم، في بيعهِم وشرائِهم، في لقائِهم ووداعِهِم.

إنَّ اكتسابَ الأصدقاءِ فنٌّ مدروسٌ يجيدُهُ النُّبلاءُ الأبرارُ، فهمْ مَحفوفون دائمًا وأبداً بهالةٍ من الناسِ، إنْ حَضروا فالبِشْرُ والأنسُ، وإن غَابوا فالسُؤالُ والدُّعاءُ.

إنَّ هؤلاءِ السُّعداء لهمْ دُستور أخلاقٍ عنوانُه:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

فهمْ يَمتصون الأحقاد بعاطِفتِهِمُ الجيَّاشةِ، وحِلمِهِمُ الدافِئ، وصفْحِهم البَريءِ.

يَتناسون الإساءة ويَحفظون الإحسَان.

تمُرُّ بهمُ الكلماتُ النابيةُ فلا تلجُ آذانهم، بل تذهبُ بعيداً هناك إلى غيرِ رجْعةٍ.

همْ في راحةٍ، والناسُ منهمُ في أَمنٍ، والمُسلمون منهمُ في سَلام، «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ».

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

بشِّر هَؤلاء بثوابٍ عاجلٍ من الطمأنينةِ والسكينةِ والهدوءِ.

وبَشرهم بثوابٍ أُخرويٍّ كبيرٍ في جوارِ ربٍّ غفورٍ في جناتٍ ونَهَرٍ.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾

الصِّدقُ حبيبُ اللهِ، والصَّراحةُ صَابونُ القلوبِ، والتجربةُ برهانٌ، والرَّائدُ لا يَكذبُ أهْله.

لم يوجدْ عملٌ أشرحُ للصدرِ وأعظمُ للأجرِ كالذِّكر.

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾.

وذِكرُهُ سبحانهُ جنَّتُهُ في أرضِهِ.

وهو إنقاذٌ للنفس من أوصابِها وأتعابِها واضطرابِها.

بلْ هو طريقٌ مُيسَّرٌ مُختصرٌ إلى كُلِّ فوزٍ وفلاحٍ.

طَالع دَواوين الوَحي لترى فوائدَ الذِّكرِ.

وجَرِّبْ مع الأيامِ بَلْسمهُ لتنالَ الشفاءَ.

بِذِكره سبحانهُ تنقشعُ سُحُبُ الخَوفِ والفَزَعِ والهَمِّ والحُزنِ.

بِذِكره تُزاحُ جبالُ الكَرْبِ والغمِ والأسَى.

ولا عَجبَ أنْ يرتاح الذاكرون، فهذا هو الأصلُ الأصيلُ، لكنَّ العَجَبَ العُجابَ كيف يعيشُ الغَافلون عن ذكرِهِ.

﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾.

يا منْ شَكى الأَرق، وبَكى من الأَلم، وتفجَّع من الحَوادثِ، ورمتْهُ الخُطوبُ، هيا اهتفْ باسمه المقدس.

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

بقدرِ إكثارك من ذكرِه ينبسطُ خاطرُك، يهدأُ قلبُك، تَسعدُ نفْسُك، يرتاحُ ضميرك.

لأن في ذكره جلَّ في عُلاه معاني التَّوكل عليه، والثقةِ به والاعتمادِ عليه، والرجوعِ إليه، وحُسنِ الظنِّ فيه، وانتظار الفرجِ منُه. فهو قريبٌ إذا دُعِي، سميعٌ إذا نُودِي، مجيبٌ إذا سُئلَ.

فاضرعْ واخضعْ واخشعْ، ورَدِّدِ اسمهُ الطيب المُبارك على لسانِك توحيداً وثناءً ومدحًا ودعاءً وسؤالاً واستغفاراً.

وسوف تجدُ بحولِهِ وقوتِهِ السعادة والأمنَ، والسُّرورَ والنورَ والحبورَ.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾.

فَصَبرٌ جَمِيلٌ

التحلِّي بالصبر من شِيمِ الأفذاذِ، الذين يَتلقون المَكـارِه برحابـةِ صَـدْرٍ، وبقـوةِ إرادةٍ، ومناعـةٍ أبيَّـة.

وإنْ لـم أصبرْ أنا وأنت فماذا نصنعُ ؟!.

هل عندك حلٌّ لنا غيرُ الصبرِ؟.

هل تعلم لنا زاداً غيرَهُ ؟.

واصبرْ وما صبرُك إلاَّ باللهِ.

اصبرْ صَبْرَ واثقٍ بالفرجِ، عالم بحُسْنِ المصيرِ، طالبٍ للأجرِ، راغبٍ في تَكفيرِ السيئاتِ.

اصبرْ مهما ادلهمَّت الخُطوبُ، وأظلمتِ أمامك الدروبُ.

فإنَّ النَّصر مع الصَّبْر.

وإنَّ الفَرج مع الكَرْبِ.

وإن مع العُسْرِ يُسْراً.

اِرضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لكَ تَكنْ أَغْنَى النَّاسِ

عليكَ أن تَقْنع بما قُسِمَ لك من جِسمٍ ومالٍ وولدٍ وسَكنٍ وموهبةٍ، وهذا مَنطقُ القرآن.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

إنَّ غالبَ علماءِ السلفِ وأكثر الجيلِ الأولِ كانوا فُقراء لم يكنْ لديهم أُعطياتٌ، ولا مساكنُ بهيةٌ، ولا مراكبُ، ولا حَشمٌ.

ومع ذلك أثْروُا الحياة وأَسعدوا أنفسهم والإنسانية، لأنهم وجَّهوا ما آتاهمُ اللهُ من خيرٍ في سبيلِهِ الصحيحِ، فَبُورِكَ لهم في أعمارِهم وأوقاتِهم ومَواهبهم.

ويُقابلُ هذا الصِّنفُ المباركُ، مَلأٌ أُعطوا من الأموالِ والأولادِ والنِّعمِ، فكانتْ سببَ شقائِهم وتعاستِهم، لأنهم انحرفوا عن الفطرةِ السويَّةِ والمنهجِ الحقِّ.

وهذا برهانٌ ساطعٌ على أن الأشياءَ ليستْ كلَّ شيءٍ، انظرْ إلى من حَمل شهاداتٍ عالميَّةً لكنهُ نكرةٌ من النَّكِراتِ في عطائهِ وفهمهِ وأثرِهِ، بينما آخرون عندهم علمٌ محدودٌ، وقدْ جعلوا منه نهراً دافقاً بالنفعِ والإصلاحِ والعَمارِ.

إن كُنت تريدُ السعادةُ فارضَ بصورتِك التي ركبَّك اللهُ فيها، وارضَ بوضعكِ الأُسري، وصوتِك، ومستوى فهمِك، ودخلِك، بل إنَّ بعض المربِّين الزهادِ يذهبون إلى أبعدِ من ذلك، فيقولون لك: ارض بأقلَّ ممَّا أنت فيهِ ودون ما أنت عليهِ.

هاك قائمةً رائعةً مليئةً باللامعين الذين بُخسوا حظوظهُمُ الدنيوية:

عطاءُ بنُ رباح، عالمُ الدنيا في عهدهِ، مولى أسودُ، أفطسُ، أشَلُّ، مفلفلُ الشعرِ.

الأحنفُ بنُ قيس، حليمُ العربِ قاطبةً، نحيفُ الجِسْمِ، أحْدَبُ الظهرِ، أحنى الساقين، ضعيفُ البُنيةِ.

الأعمش، محدِّثُ الدنيا، من الموالي، ضعيفُ البَصرِ، فقيرُ ذاتِ اليدِ، ممزقُ الثيابِ، رَث الهيئةِ والمنزلِ.

بل الأنبياء الكرامُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم، كلٌّ منهم، رعى الغنَمَ، وكان داودُ حَدَّاداً، وزكريا نجاراً، وإدريس خياطًا، وهم صَفوةُ الناسِ وخَيْرُ البشرِ.

إذاً فقيمتُك مواهبُك، وعملُك الصالحُ، ونفعُك، وخُلُقك، فلا تأس على ما فات، من جمالٍ أو مالٍ أو عيالٍ، وارض بقسمةِ اللهِ، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

دَعِ القَلَقَ

لا تحزنْ، فإنَّ ربك يقولُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وهذا عامٌّ لكلِّ من حمَلَ الحقَّ وأبصرَ النورَ، وسلَكَ الهُدَى.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، إذاً فهناك حقٌّ يَشرحُ الصُّدور، وباطلٌ يُقسِّيها.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، فهذا الدينُ غايةٌ لا يصلُ إليها إلا المسدَّد.

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، يقولُها كلُّ منْ يتيقَّنَ رعايةَ اللهِ، وولايته ولُطفه ونَصرَه.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، كفايتُه تكفيك، وولايتُه تحميك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وكلُّ منْ سَلك هذهِ الجادَّة حَصل على هذا الفوزِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، وما سواهُ فميِّتٌ غَيْرُ حيٍّ، زائلٌ غَيْرُ باقٍ، ذليلٌ وليس بعزيزٍ.

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾، فهذهِ معيتهُ الخاصةُ لأوليائِهِ بالحفظِ والرعايةِ والتأييدِ والولايةِ، بحسبِ تَقواهم وجِهادِهم.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، علواً في العُبوديةِ والمَكانةِ.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، وهذا عهدٌ لنْ يُخْلَفَ، ووعدٌ لنْ يتأخَّرَ.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، لا تحزنْ وقدِّرْ أنكَ لا تعيشُ إلا يوماً واحداً فَحَسْبُ، فلماذا تحزنُ في هذا اليومِ، وتغضبُ وتثورُ ؟!.

في الأثرِ: «إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ». أيْ: أن تكون قَصيرَ الأملِ، تنتظرُ الأجَلَ، وتُحْسِنُ العَمَلَ، فلا تطمحْ بهمُومك لغيرِ هذا اليومِ الذي تعيشُ فيه، فتركِّزَ جهودكَ عليه، وتُرتِّبَ أعمالَكَ، وتصبَّ اهتمامَك فيهِ، مُحسِّناً خُلقَكَ، مهتماً بصحتِك، مصلحاً أخلاقَكَ مع الآخرين.

أَكثِرْ مِن الاِسْتَغْفَارِ

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَرًا ۝١٢﴾.

فأَكثر من الاستغفارِ، لِترى الفرَحَ وراحةَ البالِ، والرِّزق الحَلالِ، والذُّرية الصَّالحةَ، والغَيثَ الغَزيرَ.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾. وفي الحديثِ: «مَنِ أكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ، جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا».

وعليكَ بسيِّدِ الاستغفار: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ».

عَليكَ بِذِكرِ اللهِ دَائِمًا

قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

وفي الحديثِ الصحيحِ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ».

وقوله ﷺ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ».

قالوا: ما المفَرِّدون يا رسولَ اللهِ ؟.

قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ».

وفي حديثٍ صحيحٍ قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعمَالِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟».

قالوا: بلى يا رسول اللهِ.

قال: «ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى».

وفي حديث صحيح: أنَّ رجلاً أتى إلى رسول ﷺ فقال: يا رسول اللهِ إنَّ شرائع الإسلام قدْ كُثرَتْ عليَّ، وأنا كَبِرْتُ فأخبرْني بشيءٍ أتشبَّثُ بهِ.

قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ».

اِعفُ عَمَّن أَسَاء إِليكَ

ثمنُ القَصَاصِ الباهظِ، وهو الذي يدفعُه المنتقمُ من الناسِ، الحاقدُ عليهمْ: يدفعُه من قلبِه، ومن لحمِهِ ودمِهِ، من أعصابِه ومن راحتِهِ، وسعادتِه وسرورِهِ، إذا أراد أنْ يتشفَّى، أو غضبَ عليهِمْ أو حَقَدَ.

إنه الخاسرُ بلا شكٍّ.

وقدْ أخبرَنا اللهُ سبحانه وتعالى بدواءِ ذلك وعلاجِهِ.

فقالَ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

وقالَ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وقالَ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

وَقْفَـةٌ

لا تحزنْ: فإنَّ الله يُدافعُ عنك، والمَلائكةُ تستغفرُ لك، والمُؤمنون يُشركونك في دعائِهمْ كلَّ صلاةٍ، والنبيُّ ﷺ يَشفعُ، والقرآنُ يِعدُك وعداً حسنًا، وفَوق هذا رحمةُ أرحَم الرَّاحمين.

لا تحزنْ: فإنَّ الحَسنة بعشر أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، والسيئةُ بمثلها إلا أنْ يعفوَ ربُّك ويتجاوز، فكمْ للهِ مِن كرمٍ ما سُمع مثله ! ومن جودٍ لا يُقاربُه جُودٌ!

لا تحزنْ: فأنت من روَّادِ التوحيدِ وحَملةِ المِلَّةِ وأهلِ القِبلةِ، وعندك أصلُ حبِّ اللهِ وحبِّ رسوله ﷺ، وتندمُ إذا أذنبت، وتفرحُ إذا أحسنت، فعندك خيرٌ وأنت لا تدري.

لا تحزنْ: فأنت على خيرٍ في ضَرَّائِك وسَرَّائِك، وغِناك وفقرِك، وشِدَّتِك ورَخائِك، «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ فَشَكَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ».

فَوائِد الشَّدَائِد

الشدائد: تقوِّي القلب، وتمحو الذَّنب، وتَقصِمُ العُجْبَ، وتنسفُ الكِبْرَ.

وهي ذَوبانٌ للغفلةِ، وإِشعالٌ للتذكُّرِ.

وهي جلْبُ عطفِ المخلوقين، ودعاءٌ من الصالحين.

وهي خضوعٌ للجبروتِ، واستسلامٌ للواحد القهارِ.

وزجْرٌ حاضرٌ، ونذيرٌ مُقدَمٌ، وإحياءٌ للذكرِ، وتضرُّع بالصبرِ، واحتسابٌ للغُصَصِ.

وتهيئةٌ للقدومِ على المَولى.

وإزعاجٌ عن الرُّكونِ إلى الدنيا، والرضا بها، والاطمئنان إليها.

وما خفي من اللطفِ أعظمُ.

وما سُتِرَ من الذنبِ أكبرُ.

وما عُفي من الخطأ أجلُّ.

العَفْوَ العَفْوَ

فإنك إنْ عَفوت وصَفحتَ نِلت عِزَّ الدُّنيا وشَرفَ الآخرةِ.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

وقال أحدُهم لسالمِ بنِ عبدِالله بنِ عُمر العالمِ التابعيِّ: إنك رجلُ سُوء! فقال: ما عَرَفَني إلاَّ أنت.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾.

وفي الحديثِ:«لَا تَغْضَبْ».

وفيه: «الْغَضَبَ جَمْرَةٌ مِنَ النَّارِ».

إنَّ الشيطان يصرعُ العبدَ عند ثلاثٍ:

الغضبِ، والشَّهوةِ، والغَفْلَةِ.

لا تَحْزَنْ إذا كان معك كِسْرةُ خُبْزٍ وغرفةُ ماءٍ وثوْبٌ يَسْتُرُكَ

يقولُ جوناثان سويفت: «إنَّ أفضَل الأطباءِ في العالمِ همْ:

١ـ الدكتورُ ريجيم.

٢ـ الدكتورُ هادئ.

٣ـ الدكتورُ مَرَح.

وإنَّ تقليل الطعامِ، مع الهدوءِ والسرورِ، علاجٌ ناجعٌ لا يُسألُ عنه».

قُلتُ:

لِأنَّ السُّمنة مرضٌ مزمنٌ.

والبِطنةُ تُذهبُ الفِطنةَ.

والهدوُء متعةٌ للقلبِ، وعيدٌ للروحِ.

والمَرحُ سرورٌ عاجلٌ، وغِذاءٌ نافعٌ.

وَقْفَــةٌ

«إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ».

أشدُّ الناسِ بلاءً: « الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

«وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ».

أَسْرارُ الشَّدَائدِ

أورد المؤرخُ الأديبُ أحمدُ بنُ يوسف الكاتبُ المصريُّ في كتابِهِ المعجبُ الفريدُ (المكافأةُ وحسنُ العُقبى) فقال:

وقدْ عَلم الإنسانُ أن سُفورَ الحالةِ -أي انكشاف الغُمَّةِ والشدَّةِ- عن ضدِّه، حَتْمٌ لابدَّ منه، كما عُلم أنَّ انجلاء الليلُ يُسفرُ عن النهار، ولكنَّ خَور الطبيعةِ أشدُّ ما يلازمُ النفس عندَ نزولِ الكوارثِ، فإذا لم تُعالجْ بالدواءِ، اشتدَّتِ العِلةُ، وازدادتِ المِحنةُ، لأن النفس إذا لم تُعَنْ عند الشَّدائدِ بما يجدِّدُ قُواها، تولَّى عليها اليأسُ فأهلكها.

والتفكُّرُ في أخبارِ هذا البابِ -بابِ أخبارِ من ابتلي فصبر، فكان ثمرةُ صبرِه حسن العقبى- ممَّا يُشجِّع النفْس، ويبعثُها عن ملازمةِ الصبرِ وحسنِ الأدبِ مع الربِّ عزَّ وجلَّ، بحسنِ الظنِّ في موافاةِ الإحسانِ عند نهايةِ الامتحانِ.

وإذا صَمَدَ الرجلُ بفكرِهِ نَحْوَ خالقِهِ، علم أنهُ لمْ يمتحِنْه إلا بما يوجبُ له مثوبةً، أو يمحِّصُ عنه كبيرةً، وهو مع هذا مِن اللهِ في أرباحٍ متصلةٍ، وفوائد متتابعةٍ.

فأما إذا اشتدَّ فِكرُهُ تِلقَاء الخَليقةِ، كَثُرتْ رَذائلُه، وزاد تصنُّعه، وبرِم بمقامِه فيما قصُر عن تأمُّلهِ، واستطال من المِحنِ ما عسى أن ينقضي في يومِهِ، وخَاف من المَكروهِ ما لعلَّه أنْ يُخطئهُ.

وإنما تَصْدقُ المناجاةِ بين الرجلِ وبين رَبِّهِ، لعلمِهِ بما في السَّرائرِ وتأييدِهِ البصَائر، وهي بين الرجلِ وبين أشباهِهِ كثيرةُ الأذيةِ، خارجةٌ عن المصلحةِ.

ولله تعالى رَوْحٌ يأتي عند اليأسِ منهُ، يُصيبُ به منْ يشاءُ من خلقِهِ، وإليهِ الرغبةُ في تقريبِ الفرجِ، وتسهيلِ الأمرِ، والرجوعِ إلى أفضلِ ما تَطاول إليه السُّؤْلُ، وهو حسبي ونِعْم الوكيلُ.

طالعتُ كتاب (الفرجُ بعد الشدةِ) للتنوخيِّ، وكرَّرتُ قراءته فخرجتُ منه بثلاثِ فوائدَ:

الأولى: أنَّ الفرج بعد الكربِ سُنَّةٌ ماضيةٌ وقضيةٌ مُسلَّمةٌ، كالصُبح بعدَ الليلِ، لا شكَّ فيه ولا ريب.

الثانيةُ: أنَّ المَكارِه مع الغَالبِ أجملُ عَائدةً، وأرفعُ فائدةً للعبدِ في دينِهِ ودنياهُ من المَحابِّ.

الثالثةُ: أنَّ جَالب النَّفعِ، ودَافع الضرِّ حقيقةٌ، إنما هو الله جلَّ في عُلاه.

واعلمْ أنَّ ما أصَابك لم يَكنْ لِيخطِئك وما أَخطأك لمْ يكنْ ليصيبك.

وَقْفَـةٌ

لا إله إلا اللهُ: أيْ لا معبود بحقٍّ إلا اللهُ سبحانهُ وتعالى، لتفرُّدِهِ بصفاتِ الأُلوهيَّةِ، وهي صفاتُ الكمالِ.

روحُ هذه الكلمةِ وسرُّها: إفرادُ الربِّ جلَّ ثناؤه وتقدَّستْ أسماؤُه، وتبارك اسمُه، وتعالى جدُّه، ولا إله غيرُهُ، بالمحبةِ والإجلالِ والتعظيمِ، والخوفِ والرجاءِ.

وتوابعِ ذلك من التوكلِ والإنابةِ والرغبةِ والرهبةِ.

فلا يُحبُّ سواهُ، وكلُّ ما يُحبُّ غيرُه فإنما يُحبُّه تبعًا لمحبتِه، وكونِه وسيلةً إلى زيادةِ محبتِه.

ولا يُخافُ سواهُ، ولا يُرجى سواهُ، ولا يُتوكَّل إلا عليهِ، ولا يُرغبُ إلا إليهِ، ولا يُرهبُ إلا منهُ، ولا يُحلفُ إلا باسمِهِ، ولا يُنذرُ إلا لهُ، ولا يُتابُ إلا إليهِ، ولا يُطاعُ إلا أمرُه، ولا يُتحسَّبُ إلا بهِ، ولا يُستغاثُ في الشدائدِ إلا به، ولا يُلتجأ إلا إليهِ، ولا يُسجدُ إلا لهُ، ولا يُذبحُ إلا له وباسمِهِ.

ويجتمعُ ذلك في حرفٍ واحدٍ، وهو: أنْ لا يُعبد إلا إياهُ بجميعِ أنواعِ العبادةِ.

لَا تَتَعَلَّق بِغَيرِ اللهِ

إذا كان المحيي والمُميتُ والرازقُ هو اللهُ.

فلماذا الخوفُ من الناس والقلقُ منهمُ ؟!.

رأيتُ أنَّ أكثر ما يَجلبُ الهُموم والغُموم:

التعلُّقُ بالناسِ، وطَلبُ رضاهمْ.

والتقربُ منهمُ، والحِرصُ على ثنائِهم.

والتضرُّر بذمِّهمْ.

وهذا من ضَعفِ التوحيدِ.

أَسْبَابُ اِنشِراحِ الصَّدْرِ

أهمُّها: التوحيدُ: فإنهُ بِحسبِ صفائِهِ ونقائِهِ يوسعُ الصدرَ، حتى يَكون أوسَع من الدُّنيا وما فيها.

ولا حياة لمُشركٍ وملحِدٍ، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

وتوعَّد اللهُ أَعدَاءه بضيقِ الصَّدرِ والرهبةِ والخوفِ والقلقِ والاضطرابِ.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

ومِما يَشرحُ الصَّدْرَ: العِلمُ النافعُ، فالعلماءُ أشرحُ النَّاسِ صدوراً، وأكثرُهم حُبوراً، وأعظمُهمْ سروراً، لما عندهمْ من الميراثِ المحمديِّ النبويِّ.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ومنها: العَملُ الصالحُ: فإنَّ للحسنةِ نُوراً في القلبِ، وضِياءً في الوجهِ، وسَعَةً في الرزقِ، ومحبةً في قلوبِ الخلْقِ.

﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

ومنها: الشجاعةُ: فالشُّجاعُ واسعُ البِطانِ، ثابتُ الجَنَانِ، قويُّ الأركانِ، لأنه يَؤولُ على الرحمنِ، فلا تهمُّه الحوادثُ، ولا تهزُّهُ الأراجيفُ، ولا تزعزِعُهُ التوجساتُ.

ومنها: اجتنابُ المعاصي: فإنها كدرٌ حاضرٌ، ووحشةٌ جاثمةٌ، وظلامٌ قاتمٌ.

ومنها: اجتنابُ كثرةِ المباحاتِ: من الكَلامِ والطَّعامِ والمَنام والخلطةِ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾.

طَعْمُ الحُريَّةِ اللذِيذُ

قال أحدُ السلفِ: منِ اكتفى بالخبزِ اليابسِ والماءِ، سلِم من الرِّقِّ إلا للهِ تعالى.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾.

إنَّ الذين يسعوْن على السعادةِ بجمع المالِ أو المنصبِ أو الوظيفةِ.

سوف يعلمون أنهمْ همُ الخاسرون حقـًا.

وأنهمْ ما جَلبوا إلا الهُموم والغُموم.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾.

«حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»

«حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

قالها إبراهيمُ عليه السَّلام لما أُلقي في النارِ، فصارتْ برداً وسلاماً.

وقالها محمدٌ ﷺ في أُحُدٍ، فنَصره اللهُ.

رأى مُوسى البَحرَ أمامه والعدوَّ خَلفه، فقال:

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾. فنجاهُ بإذنِ اللهِ.

إنها العِنايةُ الربانيةُ إذا تلمَّحها العبدُ، ونظر أنَّ هناك ربـاً قديراً ناصراً وليـاً راحمـاً، حينها يَركنُ العبدُ إليه.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾.

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

مُكوِّناتُ السَّعَادةِ

قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا».

والمَعنى: أن العبد إذا حَصل على الغِذاءِ، وعلى المَأوى، وكان آمنًا، فقدْ حَصل على أحسنِ السَّعاداتِ، وأفضلِ الخَيراتِ، وهذا يحصلُ عليه كثيرٌ من الناسِ، لكنهمْ لا يَذكرونه، ولا يَنظرون إليه ولا يَلمسونه.

يقولُ سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. فأيُّ نعمةٍ تمَّتْ على الرسولِ ﷺ؟ أهي المَادةُ ؟ أهو الغِذاءُ ؟ أهي القُصورُ والدُّورُ والذهبُ والفِضَّةُ؟.

إنَّ هذا الرسول العظيم ﷺ كان يَنامُ في غُرفةٍ مِنْ طينٍ، سقفُها منْ جَريدِ النخلِ، ويربطُ حَجَريْنِ على بطنِهِ من الجوعِ، ويتوسَّدُ على مخدَّةٍ منْ سَعَف النخلِ تؤثِّر في جنبِهِ، ورَهن دِرْعهُ عند يهوديٍّ في ثلاثين صاعًا منْ شعيرٍ، ويدورُ ثلاثة أيامٍ لا يجدُ رديء التمرِ ليأكله ويَشبع منه.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

لا تَغْضَبْ

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أوصَى ﷺ أحد أصحَابه فقال: «لَا تَغْضَبْ».

وغَضِب رجلٌ عِنده فأمرهُ ﷺ أنْ يستعيذ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ.

وقال تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

إنَّ ممَّا يورِثُ الكَدَرَ والهمَّ والحُزن، الحِدَّةُ والغضبُ، وله أدواءٌ عند المصطفى ﷺ.

منها: مجاهدةُ الطبعِ على تركِ الغَضَبِ، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

ومنها: الوضوءُ، فإنَّ الغَضَبَ جَمرةٌ من النارِ، والنارُ يطفئُها الماءُ.

ومنها: إذا كَان واقفًا أن يجلِس، وإذا كَان جالِسًا أن يضطَجع.

ومنها: أنْ يسكُت فلا يتكلمُ إذا غضِب.

ومنها أيضًا: أن يتذكرَ ثوابَ الكاظمينَ لغيظِهم، والعافينَ عن الناسِ المُسامحين.

إلى أَهلِ المَصَائبِ

في الصَّحيحِ عنه ﷺ: قَالَ اللهُ: «مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَخَذْتُهُ مِنْهُ إِلَّا الْجَنَّةُ».

وفي الحَديثِ الصَّحيح قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتُلِيَ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ ـ أي: عينيه ـ ثُمَّ صَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ».

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

وصَحَّ في الحَديث عنه ﷺ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ».

وفي الأثرِ: «حَتَّى أَنَّ أَهْلَ الْعَافِيَةِ لَيَتَمَنَّوْنَ فِي الْمَوْقِفِ أَنَّ أَجْسَادَهُمْ قُرِضَتْ بِالْمَقَارِضِ مِنْ حُسْنِ ثَوَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ»، أي:منْ حُسْنِ عُقبى وثوابِ المُصابين الصَّابرين.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾.

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾.

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾.

وفي الحديثِ قال ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ».

وليعلمِ العبدُ أنَّ الذي أخذ هو الذي أعطى، وأنَّ الذي سلب هو الذي منح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

فِطْرَةَ اللهِ

إذا اشتدَّ الظلامُ وزمجر الرَّعْدُ وقصفتِ الريحُ، استيقظتِ الفطرةُ.

﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

غَيْرَ أنَّ المسلم يدعو ربَّه في الشِدَّةِ والرخاءِ، والسَّراءِ والضَّراءِ.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

إنَّ الكثير يسألُ الله وقت حاجتِه وهو متضرِّعٌ إلى ربِّه، فإذا تحقَّق مطلبُه أعرضَ ونَأى بجانبِه.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

إنَّ الذين يلتجئون إلى اللهِ في وقتِ الصَّنائعِ ما همْ إلا تلاميذٌ لذاك الضالِّ المنحرفِ فرعون، الذي قيل لهُ بعد فواتِ الأوانِ.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الْأَفْعَالُ الْجَمِيلةُ طَرِيقُ السَّعَادَةِ

رأيتُ في أوَّلِ ديوانِ حاتمٍ الطَّائيِّ كلمةً جميلةً لهُ، يقولُ فيها: إذا كان تركُ الشَّرِّ يكفيك، فدَعْهُ.

ومعناهُ: إذا كان يَسع السُّكوتُ عنِ الشَّرِّ واجتنابُه، فحسبُه بذلك، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾.

محبَّةُ للناسِ موهبةٌ ربَّانيَّةٌ، وعطاءٌ مباركٌ من الفتَّاحِ العليمِ.

يقول ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا متحدِّثًا بنعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فيَّ ثلاثُ خصالٍ:

ما نزل غيثٌ بأرضٍ، إلاَّ حمدتُ الله وسُررتُ بذلك، وليس لي فيها شاةٌ ولا بعيرٌ.

ولا سَمعتُ بقاضٍ عادلٍ، إلاَّ دعوتُ الله له، وليس عنده لي قضيَّةٌ.

ولا عَرَفتُ آيةً منْ كتابِ اللهِ، إلاَّ ودِدتُ أنَّ الناس يعرفون منها ما أعرفُ.

إنه حُبُّ الخيرِ للناسِ، وإشاعةُ الفضيلةِ بينهمْ، وسلامةُ الصَّدرِ لهمْ، والنَّصْحُ كلُّ النصحِ للخليقةِ.

اِكْسَبِ النَّاسَ

مـنْ سـعادةِ العبـدِ قُدرتُـه علـى كسْـبِ النَّـاس، واسـتِجلاب محبَّتِهم وعطفِهـم، قـال إبـراهيمُ عليـه السلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، قال المفسرون: الثَّناءُ الحسنُ.

وقال سبحانه وتعالى عنْ موسى عليه السلام: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾. قال بعضُهم: ما رآك أحدٌ إلا أحبَّك.

وفي الحديثِ الصحيحِ: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ». وأَلسِنَةُ الخَلْقِ أقلامُ الحقِّ.

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ، قَالَ لِجِبْرِيلَ قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا، فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ».

ومنْ أسبابِ الودِّ: بسْطةُ الوجهِ ولِينُ الكلامِ وسَعَةُ الخُلقُ.

إنَّ منْ العواملِ القويةِ في جلْبِ أرواحِ الناسِ إليكَ: الرِّفقُ ؛ ولذلك يقولُ ﷺ: «مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ». ويقول ﷺ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ».

وفي الحديثِ الصحيحِ: «الْمُؤْمِنِ كَالنَّحْلَةِ، لَا تَأْكُلُ إِلَّا طَيِّبًا وَلَا تَضَعُ إِلَّا طَيِّبًا».

إيَاكَ وَأرْبَعًا

أربعٌ تُورثُ ضَنْكَ المَعيشةِ وكَدَرَ الخاطرِ وضيقَ الصَّدْرِ:

الأولى: التَّسخُّطُ من قضاءِ اللهِ وقدرِه، وعَدَمُ الرِّضا بهِ.

الثانيةُ: الوقوعُ في المعَاصي بلا توبةٍ.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

الثالثةُ: الحقدُ على الناسِ، وحُبُّ الانتقامِ منهمْ، وحَسَدُهم على ما آتاهُمُ اللهُ منْ فضلِه.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الرابعةُ: الإعراضُ عنْ ذكرِ اللهِ.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

أُسْكُنْ إلَى رَبِّك

راحةُ العبدِ في سكونِه إلى ربِّه سُبحانه وتعالى.

وقد ذَكَرَ اللهُ السَّكينةَ في مَواطِن مِنْ كِتابِه، فقال: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾.

والسَّكينةُ هي ثباتُ القلبِ إلى الرَّب، أو رُسوخُ الجَنان ثقةً بالرحمنِ، أو سُكُونُ الخَاطرِ توكُّلاً على القادرِ. والسكينةُ هدوءُ لواعِجِ النفْسِ وسكونُها، واستئناسُها ورُكُودُها وعدمُ تفلُّتِها، وهي حالةٌ من الأمنِ، يَحْظَىَ بها أهلُ الإيمانِ، تُنقذُهُمْ منْ مزالقِ الحيْرةِ والاضطرابِ، ومهاوي الشَّكِّ والتَّسخُّطِ.

وهي بحَسب ولايةِ العبدِ لربِّه، وذكْرِه وشُكرِه لمولاهُ، واستقامتِه على أمرِه، واتِّباعِ رسولِهِ ﷺ، وتمسُّكِه بهدْيِه، وحبِّه لخالقِهِ، وثقتِه في مالكِ أمرِه، والإعراضِ عمَّ سواهُ، وهجْر ما عَداهُ.

لا يَدْعو إلا الله، ولا يعبدُ إلا إياهُ، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

نَزَلَ هذا الكلامُ على رسولِ اللهِ ﷺ فتحقَّقتْ فيه هذهِ الكلمةُ، فكانَ سَهْلَ الخَاطرِ، مُنشرحَ الصدرِ، متفائلاً، جيَّاشَ الفؤادِ، حيَّ العاطفةِ، مُيسَّراً في أمورِهِ، قريباً من القلوبِ، بسيطاً في عظمةٍ، دانياً من الناسِ في هيبةٍ، مُتبسماً في وقارٍ، متحبباً في سموٍّ، مألوفاً للحَاضر والبَاد، جمَّ الخُلُقِ، طلْقَ المُحيَّا، مُشرق الطلْعةِ، غَزير الحياءِ، يهشُّ للدُّعابةِ، ويَبَشُّ للقادِمِ، مسروراً بعطاءِ اللهِ، جَذِلاً بالهِباتِ الرَّبانيَّةِ، لا يَعتريهِ اليأسُ، ولا يعرفُ الإحباطَ، ولا يَخلدُ إلى التَّخْذِيلِ، ولا يعترفُ بالقنوطِ، ويُعجبُه الفألُ الحسنُ، ويكرهُ التَّعمُّق والتَّشدُّق، والتَّفيْهُق والتَّكلُّف والتَّنطُّع؛ لأنهُ صاحبُ رسالةٍ، وحاملُ مبدأ، وقدوةُ أُمَّةٍ، وأُسوةُ أجيالٍ، ومعلِّمُ شعوبٍ، وربُّ أسرةٍ، ورجُلُ مجتمعٍ، وكنْز مُثُلٍ، ومَجْمَعُ فضائل، وبحرُ عطايا، ومَشرِقُ نورٍ.

إنه باختصارٍ: مُيسرٌ لليُسرى.

وإنه بإيجازٍ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

أو بعبارةٍ أخرى: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وكفى به: ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾.

اِكتِسَابُ الفَضَائِلِ أَكَالِيلٌ عَلى هَامِ الحَياةِ السَّعِيدةِ

مطلوبٌ من العبدِ لكيْ يَكسب السَّعادةَ والأمنَ والراحةَ، أن يُبادرَ إلى الفضائلِ، وأنْ يُسارعَ إلى الصِّفاتِ الحَميدةِ والأفعالِ الجميلةِ، «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

أحدُ الصَّحابةِ يَسألُ الرسول ﷺ مرافقَتَهُ في الجنةِ فيقول: «عَلَيْكَ بِالسُّجُودِ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً».

والآخرُ يسألُ عنْ بابٍ جامعٍ من الخيرِ، فيقولُ له ﷺ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطِبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ».

وثالثٌ يسألُ فيقولُ له ﷺ: «لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا، وَلَا تَزْهَدَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي».

إنَّ الأمر يقتضي المبادَرَةَ والمُسارعة: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا»، «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ»، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

لا تُهمِلْ في فِعْلِ الخَيْرِ، ولا تَنتظرْ في عَملِ البِرِّ، ولا تُسوِّفْ في طَلَبِ الفضائلِ.

مِفْتَاحُ السَّعَادَةِ

إذا عَرفت الله وسبَّحْته وعَبدْتَهُ وتألَّهْتهُ وأنت في كُوخٍ، وجدت الخَيْرَ والسعادةَ والراحةَ والهدوءَ.

ولكنْ عند الانحرافِ:

فلوْ سكنت أرقى القصورِ.

وأوسع الدورِ.

وعندك كلُّ ما تشتهي.

فاعلمْ أنَّها نهايتُك المُرَّةُ.

وتعاستُك المحققةُ.

لأنك ما مَلكت إلى الآنِ مِفتاح السعادةِ.

رِضَـًا بِرِضَـًا

ولْيَعْلم أنَّ رِضاه عن ربِّه سبحانهُ وتعالى في جميعِ الحالاتِ، يُثمِرُ رِضا ربُه عَنه.

فإذا رَضِي عَنه بالقليلِ من الرِّزقِ، رَضي ربُّه عنه بالقليلِ من العملِ.

وإذا رَضي عنه في جميع الحَالاتِ، واستوتْ عندهُ، وجدهُ أسْرَعَ شيءٍ إلى رضاهُ إذا ترضَّاه وتملَّقه.

ولذلك انظرْ للمُخلصينِ مع قِلَّةِ عملِهم، كيف رَضي اللهُ سَعيَهم لأنهمْ رضُوا عنهُ ورضي عنهمْ.

بخلافِ المنافقين، فإنَّ الله ردَّ عملهم قليلهُ وكثيرهُ؛ لأنهم سَخِطُوا ما أَنزلَ الله وكرهُوا رضوانهُ، فأحبط أَعمالهم.

فالرِّضا يُوجِبُ له الطُّمأنينة، وبَرد القلبِ، وسكونهُ وقَراره وثباتهُ عند اضطرابِ الشُّبهِ والتباسِ القَضايا وكثْرةِ الواردِ.

فيثقُ هذا القلبُ بموعودِ اللهِ وموعودِ رسوله ﷺ، ويقولُ لسانُ الحالِ: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

والسَّخطُ يوجبُ اضطراب قلبِه، وريبتهُ وانزعاجهُ، وعَدَمَ قرارِهِ، ومرضهُ وتمزُّقهُ.

فيبقى قلِقًا ناقِمًا ساخِطًا متمرِّداً، فلسانُ حالِه يقولُ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾. فأصحابُ هذه القلوبِ إن يكُن لهمُ الحقُّ، يأتوا إليه مُذعِنِين، وإن طُولِبوا بالحقِّ إذا همْ يصْدِفون، وإنْ أصابهم خيرٌ اطمأنُّوا به، وإنْ أصابتهم فتنةٌ انقلبُوا على وجوهِهم، خَسرُوا الدنيا والآخرةِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

كما أنَّ الرضا يُنزلُ عليه السَّكينة التي لا أَنْفَعَ لهُ مِنها، ومتى نزلتْ عليه السكينةُ، استقام وصلحتْ أحوالُه، وصلح بالُه.

والسُّخط يُبعِدُه منها بِحَسبِ قِلَّتِه وكثرتِه.

وإذا ترحَّلتْ عنهُ السكينةُ، ترحَّل عنه السرورُ والأمْنُ والراحةُ وطِيبُ العيشِ.

فمنْ أعْظَمِ نعمِ اللهِ على عبدِه: تنزُّلُ السَّكينةِ عليهِ.

ومنْ أعظمِ أسبابِها: الرِّضا عنه في جميعِ الحالاتِ.

«تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»

ينبغي أنْ يكون بين العبدِ وبين رِّبهِ معرفةٌ خاصَّةٌ بقلبِهِ.

بحيثُ يجدُه قريباً للاستغناءِ لهُ منهُ.

فيأنسُ بهِ في خلوتِه.

ويجدُ حَلاوة ذِكْرِه ودعائِه.

ومناجاتِه وطاعتِه.

ولا يزالُ العبدُ يقع في شدائد وكُربٍ في الدنيا والبرْزخِ والموقفِ.

فإذا كان بينهُ وبين ربِّه معرفةٌ خاصَّة، كفاهُ ذلك كلُّه.

إشَارَاتٌ فِي طَرِيقِ البَّاحِثِين

للسعادةِ والفلاحِ علاماتٌ تلوحُ، وإشاراتٌ تظهرُ، وهي شهودٌ على رقيِّ صاحبها، ونجاحِ حامِلِها، وفلاحِ منِ اتَّصف بها.

فمن علاماتِ السعادةِ والفلاحِ:

أنَّ العبد كلَّما زاد وزُنه ونفاستُه، غاص في قاعِ البحارِ، فهو يعلمُ أنَّ العِلم موهبةٌ راسخةٌ يمتحِنُ اللهُ بها منْ شاء، فإنْ أحْسَنَ شُكَرَها، وأحسَن في قبُولِهِ، رَفعهُ به درجاتٍ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

وكلَّما زِيد في عملهِ، زِيد في خوفِهِ وحَذَرِه، فهو لا يأمنُ عثرة القدمِ، وزلَّة اللسانِ، وتقلُّب القلبِ، فهو في مُحاسبةٍ ومُراقبةٍ كالطائرِ الحذِر، كلَّما وقع على شجرةٍ تركها لأخرى، يخافُ مهارة القنَّاص، وطائشة الرصاصِ. وكلَّما زِيد في عمرِه، نقص من حِرْصِهِ، ويعلمُ علم اليقينِ أنَّهُ قدِ اقترب من المنتهى، وقَطع المَرحلة، وأشرفَ على وادي اليَقين.

وهو كلَّما زِيد في مالِه، زيد في سخائِه وبذْلِهِ ؛ لأنَّ المال عَاريةٌ، والواهِب ممتحنٌ، ومناسباتِ الإمكانِ فُرصٌ، والموتُ بالمرصادِ. وهو كُلَّما زِيد في قَدْرِه وجاهِه، زيد في قُربِه من الناسِ وقضاءِ حوائجِهم والتَّواضُعِ لهم ؛ لأنَّ العِباد عِيالُ الله، وأحبُّهم إلى اللهِ أنفعُهم لعيالِه.

و من علاماتُ الشقاوةِ:

أنَّه كلَّما زِيد في علمِهِ، زِيد في كِبْره وتيهِهِ، فعلْمُه غيرُ نافعٍ، وقلبُه خاوٍ، وطبيعتُه ثخينةٌ، وطينتُه سِباخٌ وعرةٌ. وهو كَّلما زِيد في عملِه، زِيد في فَخره واحتقارِه للناس، وحُسْنِ ظنَّه بنفسِهِ.

فهو الناجي وحده، والباقون هَلْكى، وهو الضَّامنُ جواز المفازةِ، والآخرون على شفا المتالِفِ. وهو كلَّما زِيد في عمرِه، زيد في حِرصِهِ، فهو جمُوعٌ منُوعٌ، لا تُحرِّكهُ الحوادِثُ، ولا تُزعزعُه المصائبُ، ولا تُوقِظهُ القوارعُ.

وهو كلَّما زِيد في مالِه، زيد في بُخلِه وإمساكِه، فقلْبُه مقفرٌ من القِيم، وكفُّه شحيحةٌ بالبذْلِ، ووجهُه صفيقٌ عريَّ من المكارمِ.

وهو كلَّما زيد في قدْرِه وجاهِه، زِيد في كِبرِه وتيْهِه، فهو مغرورٌ مدحورٌ، طائشُ الإرادةِ منتفخُ الرِّئةِ، مريشُ الجناحِ، لكنَّه في النهايةِ لا شيء: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صُوْرَةِ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِم عَلَى اللهِ تَعَالَى».

وهذِهِ الأمورُ ابتلاءٌ من اللهِ وامتحانٌ، يَبْتَلي بها عباده فيسْعدُ بها أقوامٌ، ويشقى بها آخرون.

أَنْتَ أَرْفَعُ مِنَ الأَحْقَادِ

أسعدُ الناس حَالاً وأشرحُهم صَدراً، هو الذي يُريدُ الآخرة.

فلا يَحسدُ النَّاس على ما آتاهم اللهُ مِنْ فضْلِهِ.

و إنما عِنده رسالةٌ من الخيرِ، ومُثُلٌ ساميةٌ من البِرِّ والإحسانِ.

يريدُ إيصال نفْعِه إلى الناسِ، فإنْ لم يَستطع، كفَّ عنهم أذاه.

وانظرْ إلى ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما بحْرِ العلمِ وترْجُمانِ القرآنِ، كيف استطاع بخُلُقه الجمِّ وسخاوةِ نفسِه، أنْ يحوِّل أعداءهُ منْ بني أُميَّةَ وبني مروان ومنْ شايعهم إلى أصدقاء، فانتفع الناسُ بعلْمِه وفهْمه، فملأ المجامع فِقهـًا وذِكراً وتفسيراً وخيْراً.

أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْراً

الصِّفةُ البارزةُ في مُعَلِّمِ الخيرِ ﷺ: انشراحُ الصدرِ، والرِّضا، والتَّفاؤلُ.

فهو مبشِّرٌ، ينهى عن المشقَّةِ والتنفير.

ولا يعرفُ اليأس والإحباط.

فالبسمةُ على مُحيَّاه، والرِّضا في خلدِه.

واليُسْرُ في شريعتِه، والوسطيَّةُ في سُنَّتِه، والسعادةُ في مِلَّته.

إنَّ جُلَّ مهمَّتِهِ:

أن يَضع عَنهم إِصْرَهُم والأغْلَال التي كانتْ عَليهم.

كَيفَ تَشكُرُ عَلَى الكَثِيرِ وقَد قَصَّرتَ في شُكْرِ القَلِيلِ

إنَّ منْ لا يحمدُ الله على الماءِ الباردِ العذْبِ الزُّلالِ، لا يحمدُه على القصورِ الفخمةِ، والمراكبِ الفارِهةِ، والبساتينِ الغنَّاءِ.

وإنَّ منْ لا يشكُرُ الله على الخبزِ الدافئِ، لا يشكرهُ على الموائدِ الشَّهيَّةِ والوجباتِ اللَّذيذةِ.

لأنَّ الكَنُود الجَحُود يرى القَليل والكَثير سواءً.

وكثيرٌ منْ هؤلاء أَعطى ربَّه المَواثيق الصَّارمة، على أنه مَتى أَنعَم عليه وحَباهُ وأَغدَق عليهِ فسوفَ يشكُرُ ويُنفقُ ويتصدَّقُ.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴿٧٦﴾﴾.

ونحنُ نلاحظُ كلَّ يومٍ منْ هذا الصِّنفِ بشراً كثيراً.

كَاسف البالِ مكدَّر الخاطرِ، خاوي الضميرِ، ناقمـاً على ربِّه أنه ما أَجْزل له العطيَّة، ولا أتحفهُ برزقٍ واسعٍ.

بينما هو يرفُلُ في صحَّةٍ وعافيةٍ وكفافٍ.

ولم يشكُرْ وهو في فَراغٍ وفسحةٍ.

فكَيف لو شُغِل مثل هذا الجاحدُ بالكنوزِ والدُّورِ والقصورِ؟!.

إذنْ كان أكْثرَ شُرُداً من ربِّه، وعقوقًا لمولاهُ وسيِّدِهِ.

الحَافي منَّا يقول: سوف أشكرُ ربِّي إذا مَنحَني حذاءً.

وصاحبُ الحذاءِ يؤجِّل الشُّكْر حتى يحصُل على سيَّارةٍ فارهةٍ.

نأخُذ النعيمِ نقْداً، ونُعطي الشُّكْر نسيئةً.

رغباتُنا على اللهِ مُلحَّةٌ.

وأوامرُ اللهِ عندنا بطيئةُ الامتثالِ.

وَقْفَـــةٌ

منْ لطائفِ أسرارِ اقترانِ الفَرَج بالكَرْب، أنَّ الكَرب إذا اشتدَّ وعظُم وتناهى، وحصل للعبد اليأسُ من كشْفِه من جهةِ المخلوقين تعلَّق باللهِ وحده، وهذا هو حقيقةُ التَّوكُّلِ على اللهِ.

وأيضـًا فإنَّ المؤمن إذا استبطأ الفَرَج، وأيِس من كثْرةِ دعائِه وتضرُّعِه، ولم يظهر عليه أثرُ الإجابةِ، رجع إلى نفسِه باللاَّئمةِ، وقال لها: إنما أُتيتُ مِنْ قِبلِكِ، ولو كانَ فيكِ خيرٌ لأُجبْتُ.

وهذا اللومُ أحبُّ إلى الله منْ كثيرٍ من الطاعاتِ، فإنه يُوجبُ انكِسار العبدِ لمولاهُ، واعترافُه له بأنه أهلٌ لما نَزل من البلاءِ، وأنه ليس أهلاً لإجابةِ الدعاءِ، فلذلكَ تُسرِعُ إليه حينئذٍ إجابةُ الدعاءِ وتفريجُ الكرْبِ.

ويقولُ إبراهيمُ بنُ أدهم الزاهدُ رحمه الله: «نحن في عيشٍ لو عَلم به الملوكُ، لجالدُونا عليه بالسيوفِ».

ويقولُ ابنُ تيمية شيخُ الإسلامِ رحمه الله: «إنها لَتَمُرُّ بقلبي ساعاتٌ أقولُ: إن كان أهلُ الجنةِ في مِثْلِ ما أنا فيه، فهم في عيشٍ طيِّبٍ».

صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ

مِنْ أجملِ الكلماتِ، قولُ أبي بكرٍ الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صَنَائِع المَعروف تَقِي مَصَارعَ السوءِ».

وهذا كلامٌ يُصدِّقه النَّقلُ والعقلُ:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

تقولُ خديجةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«كَلا واللهِ لا يُخزيكَ اللهُ أبَداً، إنكَ لتصِلُ الرَّحِم، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتُكسِبُ المَعدُوم، وتُعينُ على نَوائِبِ الدَّهْرِ».

فانظُرْ كيف استدلَّتْ بمحاسنِ الأفعالِ على حُسْنِ العواقبِ.

وكَرَمِ البدايةِ على جلالةِ النهايةِ.

اِسْتِجْمَامٌ يُعِينُ عَلَىٰ مُواصَلةِ السَّيْرِ

من المعلومِ أنَّ في الشريعةِ سَعَةً وفُسحةً، تُعينُ العَبد على الاستِمرار في عبادتِه وعطائِه وعملِه الصالحِ.

فرسولُنا ﷺ كان يَضحكُ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، وكان يَمزحُ ولا يقولُ إلا حقـًا، وسابق عائشة رضي الله عنها، وكان يتخوَّلُ الصحابة رضي الله عنهم بالموعظةِ، كراهِية السَّآمةِ عليهم، وكان ينهى عن التَّعمُّق والتَّكلُّفِ والتشديدِ، ويُخبرُ أنه لن يُشادَّ الدِّين أحدٌ، إلا غَلَبَهُ.

وفي الحديثِ: إنَّ الدِّين متينٌ، فأوغِلُوا فيه برفْقٍ.

وفي الحديثِ أيضـًا: أنَّ لكل عابد شِرَّةً، وهي الشِّدَّةُ والضَّراوةُ والاندِفاعُ.

ولا يلبثُ المتكلِّفُ إلا أنْ ينقطع، لأنه نظر إلى الحالةِ الراهنةِ ونسي الطَّوارئ وطُول المُدَّة ومَلالةُ النَّفْسِ.

وإلاَّ فالعاقلُ له حدٌّ أدنى في العملِ يُداومُ عليه، فإنْ نشِط زادَ، وإنْ ضَعُف بَقي على أصلِه، وهذا معنى الأثر منْ كلامِ بعضِ الصحابة: «إنَّ للنفوسِ إقبالاً وإدباراً، فاغتنموها عند إقبالها، وذرُوها عند إدبارِها».

بِلَا فَوضَويَّة

مما يُكدِّرُ ويُشتِّتُ الذِّهن، الفوضويَّةُ الفكريَّةُ التي يعيشُها بعضُ الناسِ.

فهو لم يحدِّد قُدراتِه.

ولم يَقصدْ إلى ما يُجمعُ شَمل فِكْرِهِ ونَظَرِه.

لأن المَعرفة شُعوبٌ ودروبٌ.

ولا بُدَّ منْ تحديدِ آليتِها ومعرفةِ مسالكها، ويَجمعُ رأْيه على مَشربٍ معروفٍ، لأنَّ التَّفرد مطلوبٌ.

وكذلك ممَّا يُشتِّتُ الذِّهن، ويُورِث الغَمَّ، الدَّيْنُ والتبِعاتُ الماليةُ والتكاليفُ المعيشيَّةُ.

وهناك أصولٌ في هذه المسألةِ أُريدُ ذِكرها:

أولها: ما غَال منِ اقتصدُ، ومَنْ أحْسَنَ الإنفَاق، وحَفِظ مالهُ إلاَّ للحَاجة، و من اجتنب التبذير والإسراف، وَجَدَ العَون مِن اللهِ.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَانَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

الثاني: كسْب المَال مِن الوجوهِ المُباحةِ، وهَجْرُ كلِّ كَسبٍ محرَّمٍ، فإنَّ الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّبًا، واللهُ لا يُبارِكُ في المَكسبِ الخَبيثِ.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾.

الثالث: السَّعْيُ في طلبِ المالِ الحَلالِ، وجمْعُه منْ حِلِّه.

وتَركُ العَطالةِ والبطَالةِ.

واجتنابِ إزجاءِ الأوقاتِ في التفاهاتِ.

فهذا ابنُ عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «دُلُّوني عَلى السُّوقِ».

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وَقْفَـةٌ

قِلَّةُ التوفيقِ وفسادُ الرَأي، وخَفاءُ الحقِّ، وفَسادُ القَلب، وخُمولُ الذِّكْرِ، وإضاعةُ الوقتِ، ونَفْرَةُ الخَلْق.

والوحْشةُ بين العبدِ وبين ربِّه، ومنْعُ إجابةِ الدعاءِ، وقسوةُ القلبِ.

ومَحْقُ البركةِ في الرِّزقِ والعُمرِ، وحرمانُ العلمِ، ولباسُ الذُّلِّ، وإهانةُ العدوِّ وضيقُ الصدرِ، والابتلاءُ بقرناءِ السوءِ، الذين يُفسدون القلب، ويُضيِّعون الوقت، وطولُ الهمِّ، وضنْكُ المعيشةِ، وكَسْفُ البالِ... ألخ.

تتولَّد من المعصيةِ والغفلةِ عن ذكرِ اللهِ، كما يتولَّد الزَّرعُ عن الماءِ، والإحراقُ عن النارِ.

وأضدادُ هذه تتولَّدُ عن الطاعةِ.

أمَّا تأثيرُ الاستغفارِ في دَفْع الهمِّ والغمِّ والضيقِ، فمِمَّا اشترك في العلْمِ به أهلُ المِللِ، وعقلاءُ كلِّ أمَّة.

إنَّ المعاصي والفساد تُوجِب الهمَّ والغمَّ، والخوف والحزن، وضِيق الصدر، وأمراض القلب.

بَسْمةٌ فِي البِدَايةِ

من جميلِ المقابلةِ تبسُّم الزوجةِ لزوجِها، والزوجُ لزوجتِه.

إن هذه البَسمة إعلانٌ مبدئيٌّ للوفاقِ والمصالحةِ: «وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ».

وكان ﷺ ضحَّاكًا بسَّامًا.

وفي البدايةِ بالسلامِ: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ﴾، ورَدُّ التحيةِ من أحدِهما للآخرِ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَاۗ﴾.

ومن أسبابِ سعادةِ البيتِ: لِينُ الخِطابِ من الطَّرفين: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

أكثرُ مشاكلِ البيوتِ من معاناةِ التوافهِ ومعايشةِ صغارِ المسائلِ.

وقد عِشتُ عَشراتِ القضايا التي تنتهي بالفِراقِ، سببُ إيقادِ جذوتها أمورٌ هينةٌ سهلة، أحدُ الأسبابِ أن البيت لم يكن مرتبًا، والطعام لم يقدَّم في وقتِه، وسببُه عند آخرين أن المرأة تريدُ من زوجها أن لا يُكثر من استقبالِ الضيوفِ، وخُذ من هذه القائمة التي تُورثُ اليتُم والمآسي في البيوتِ.

إنَّ علينا جميعاً أن نعترف بواقِعنا وحالِنا وضعفِنا، ولا نعيشُ الخيال والمثالياتِ، التي لا تحصلُ إلا لأُولي العزمِ من أفرادِ العالمِ.

نحن بَشرٌ نغضبُ ونحتدُّ، ونضعفُ ونخطئُ، وما معنا إلا البحثُ عن الأمرِ النسبيِّ في الموافقةِ الزوجيةِ، حتى نَعيش هذه السنواتِ القصيرةِ بسلامٍ.

إن أريحية أحمد بنِ حنبل وحُسْن صحبته تُقدَّم في هذه الكلمة، إذ يقول بعد وفاة زوجتهِ أمِّ عبدِالله: لقد صاحبتُها أربعين سنةً ما اختلفتُ معها في كلمةٍ.

إن على الرجل أن يسكت إذا غضبتْ زوجتُه، وعليها أن تسكتُ هي إذا غضب، حتى تهدأ الثائرةُ، وتبرد المشاعرُ، وتسكن اضطراباتُ النفسِ.

وأكثرُ الناسِ على غيْرِ هذا الطريقِ، متى رأوا غضبان قابلُوه بما يقولُ ويعملُ، وهذا على غيْرُ مقتضى الحكمةِ.

بل الحِكمةُ ما ذكرتُ، وما يعقلُها إلا العالمون.

الْمَنْهَجُ وَسَطٌ

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

السعادة في الوَسَطِ، فلا غُلُوَّ ولا جَفَاءَ، ولا إفْرَاط ولا تفْرِيط.

وإن الوسطيَّة مِنْهجٌ ربَّانيٌّ حميدٌ يمنعُ العبد من الحَيْفِ إلى أحدِ الطرفيْن.

إن من خَصائصِ الإسلامِ أنه دينُ وسطٍ.

وإن مِمَّا يسعدُك في حياتِك الوسَطية:

الوسَطيةُ في عبادتِك: فلا تغْلُ فتُنْهِك جسمك وتقضي على نشاطك ومداومتِك، ولا تَجْفُ فتَطرح النوافِل وتَخدش الفرائض وتَرْكَن إلى التَّسويف.

وفي إنفاقكِ: فلا تُتلفْ أموالك وتهلكْ دَخلك فتبقى حسيراً مُمْلِقـًا، ولا تمسكْ عطاءك وتبخلْ بِنَوالك، فتبقى ملومـًا محرومـًا.

وفي خُلقِك: بين الجدِّ المُفرطِ، واللِّينِ المتداعي.

بين العبوسِ الكالحِ، والضحكِ المتهافتِ.

بين العُزلةِ الموحشةِ، والخُلطةِ الزائدةِ على الحدِّ.

إنَّه مِنهجُ الاعتدالِ في أخذِ الأمورِ، والحُكمِ على الأشياءِ، ومعاملةِ الآخرين.

فلا زيادة يطفو بها كَيْلُ القِيمِ، ولا نقْص يضمحلُّ به أصلُ الخيْر.

لأن الزيادة ترفٌ وسَرفٌ، والنقص جفاءٌ وحفاءٌ.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

إنَّ الحَسنة بين السيِّئتين: سيئة الإفراط، وسيئة التفريط.

وإن الخيْر بين الشرَّين: شرِّ الغُلُوِّ، وشرِّ المجافاةِ.

وإن الحقَّ بين الباطلين: باطلِ الزيادةِ، وباطلِ النقصِ.

وإن السَّعادة بين الشقاءين: شقاءِ التهورِ، وشقاءِ النُّكوصِ.

والكِرم بين: الإسرافِ، والبخلِ.

والشَّجاعة بين: الجُبنِ، والتهورِ.

والحِلم بين: الحِدَّةِ، والتبلُّد.

والبَسمة بين: العُبوس، والضَّحك.

والصَّبر بين: القَسوة، والجَزعِ.

وللغلوِّ دواءٌ هو التخفيفُ من هذا الغلوِّ، وإطفاءُ شيءٍ من هذا اللهيب المحرق.

وللجفاءِ دواء هو سَوْطُ عزمٍ، وومضةُ هِمَّة، وبارقةُ من رجاءٍ.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وَقْفَـةٌ

ليس في الوجُود شيءٌ أصعبُ من الصَّبرِ، إما عن المحبوبِ، أو على المكروهاتِ.

وخُصوصـًا إذا امتدَّ الزمان، أو وقع اليأسُ من الفرجِ.

وتِلك المدةُ تحتاجُ إلى زادٍ يُقطعُ به سفرُها، والزاد يتنوعُ من أجناسٍ:

فمنه: تلمُّحُ مقدارِ البلاءِ، وقد يُمكنُ أن يكون أكثر.

ومن ذلك: رجاء العِوضِ في الدنيا.

ومنه: تلمُّح الأجرِ في الآخرةِ.

ومن ذلك: أن الجزع لا يفيدُ، بل يفضحُ صاحِبهُ.

إلى غيْرِ ذلك من الأشياء التي يقدحُها العقلُ والفكرُ، فليس في طريقِ الصبرِ نفقةٌ سواها، فينبغي للصابرِ أن يشغل بها نفسه، ويقطع بها ساعاتِ ابتلائِهِ.

عَوَّضَهُ اللهُ خَيراً مِنْهُ

ذكر ابنُ رجب رحمه الله وغَيرُه:

أنَّ رجلاً من العُبَّادِ كان في مكة، وانقطعتْ نفقتُه، وجاعَ جوعـًا شديداً، وأشرفَ على الهلاكِ.

وبينما هو يدورُ في أحدِ أزقَّةِ مكة إذ عثَر على عِقْدٍ ثمينٍ غالٍ نفيسٍ، فأخذه وذهب إلى الحَرَمِ.

وإذا برجلٍ ينشدُ عن هذا العقد، قال: فوصفه لي، فما أخطأ من صفتِه شيئـًا، فدفعتُ له العِقْد على أن يعطيني شيئـًا.

قال: فأخذ العقد وذهب، لا يلوي على شيء، وما سلَّمني درهمـًا ولا نقيراً ولا قِطميراً.

قلتُ: اللهم إني تركتُ هذا لك، فعوِّضني خيراً منه.

ثم ركب جهة البحرِ، فذهب بقاربٍ، فهبَّتْ ريحٌ هوجاءُ، وتصدَّع هذا القاربُ، وركب هذا الرجل على خشبةٍ، وأصبح على سطحِ الماءِ تلعبُ به الريح يمْنَةً ويَسْرَةً، حتى ألقتْه إلى جزيرةٍ، ونَزلَ بها، ووجد بها مسجداً وقومـًا يصلُّون فصلَّى، ثم وجد أوراقـًا من المصحفِ فأخذ يقرأ.

قال أهل تلك الجزيرةِ: أئنك تقرأ القرآن ؟ قلتُ: نعمْ.

قالوا: علِّمْ أبناءنا القرآن.

فأخذتُ أعلِّمهم بأُجرةٍ، ثم كتبتُ خطـًا، قالوا: أتعلِّم أبناءنا الخطَّ ؟ قلتُ: نعم.

فعلَّمتُهم بأُجرةٍ.

ثم قالوا: إن هنا بنتـًا يتيمةً كانت لرجلٍ منا فيه خيْرٌ وتُـوفِّي عنهـا، هـل لـك أن تتزوجهـا؟ قلـتُ: لا بأس.

قال: فتزوجتُها، ودخلتُ بها فوجدتُ العقْد ذلك بعينهِ بعنقِها.

قلتُ: ما قصةُ هذا العقدِ؟ فأخبرتِ الخَبَرَ، وذكرتْ أن أباها أضاعه في مكة ذات يوم، فوجده رجلٌ فسلَّمه إليه، فكانَ أبوها يدعو في سجودِه، أن يرزقَ ابنتهُ زوجـًا كذلِك الرَّجل.

قال: فأنا الرجلُ.

فدخل عليه العِقْدُ بالحلالِ، لأنه ترك شيئـًا للهِ، فعوَّضه الله خيراً منه.

«إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا».

كَفَى بِاللهِ وَكِيلاً وشَهِيداً

ذكر البخاريُّ في صحيحهِ: «أن رجلاً من بني إسرائيل طلب من رجلٍ أن يُقرضه ألف دينارٍ.

قال: هل لك شاهدٌ؟.

قال: ما معي شاهدٌ إلا اللهُ.

قال: كفى بالله شهيداً.

قال: هل معك وكيلٌ؟.

قال: ما معي وكيل إلا اللهُ.

قال: كفى بالله وكيلاً.

ثم أعطاه ألف دينار، وذهب الرجل وكان بينهما موعدٌ وأجلٌ مسمَّى، وبينهما نهرٌ في تلك الديارِ، فلما حان الموعدُ أتى صاحبُ الدنانيرِ ليعيدها لصاحبِها الأولِ، فوقفَ على شَاطئ النَّهرِ، يريدُ قاربًا يركبُه إليه، فما وجد شيئًا، وأتى الليلُ وبقي وقتًا طويلاً، فلم يجدْ من يحملُه، فقال: اللهمَّ إنهُ سَألني شَهيداً فما وجدتُ إلا أنتَ، وسَألني كَفيلاً فما وجدتُ إلا أنتَ، اللهم بلِّغْهُ هذه الرسالةَ.

ثم أخذ خشبةً فنقرها وأدخلَ الدنانيرَ فيها، وكَتب فيها رِسالةً، ثم أخذَ الخشبةَ ورماها في النهرِ، فذهبتْ بإذنِ اللهِ، وبلطفِ اللهِ، وبعنايةِ اللهِ سبحانه وتعالى.

وخَرج ذاكَ الرجلُ صاحبُ الدنانيرِ الأولُ ينتظرُ مَوعدَ صاحبِهِ.

فوقفَ على شَاطئ النَّهرِ وانتظرَ فما وجدَ أحداً.

فقال: لِم لا آخذُ حَطباً لأهلِ بَيتي؟!.

فعَرضتْ لهُ الخشبةُ بالدنانيرِ، فأَخذها وذهبَ بها إلى بيتِهِ.

فكَسرها فوجدَ الدنانيرَ والرسالةَ.

لأنَّ الشَّهيد سبحانهُ وتعالى أعانَ، ولأنَّ الوَكيل أدَّى الوَكالة، فتعالى اللهُ في عُلاهُ.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

الرَّاحَةُ فِي الجَنَّةِ

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾

يقولُ أحمدُ بنُ حنبلَ رحمه الله، وقد قيل له: متى الراحةُ ؟.

قال: «إذا وضعتَ قَدمكَ في الجنةِ ارتحتَ».

هنا في الدنيا إزعاجاتُ وزعازعُ، وفِتنٌ وحوادثُ، ومصائبُ ونكباتُ.

مَرَضٌ وهمٌّ وغمٌّ، وحزنٌ ويأسٌ.

إنَّ الذين يتعجَّلون الرَّاحة بتركِ الواجبِ، إنما يتعجَّلون العَذاب حقيقةً.

إنَّ الراحةَ في أداءِ العَمل الصَّالحِ، والنفعِ المتعدِّي، واستثمارِ الوقتِ فيما يقرِّبُ من اللهِ.

إنَّ الكَافر يريدُ حظَّه هنا، وراحتَهُ هنا، ولذلك يقولون:

﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾. قال بعضُ المفسِّرين: أي: نصيبنا من الخَيْرِ وحظَّنا من الرزقِ قبل يومِ القيامةِ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، ولا يفكِّرون في الغدِ ولا في المستقبلِ، ولذلك خَسرُوا اليَوم والغَد، والعَمل والنَّتيجة، والبِداية والنِّهاية.

وهكذا خُلقتِ الحياةِ، خاتمتُها الفناءُ فهي شربٌ مكدَّرٌ، وهي مزاجٌ ملوَّن لا تستقرُّ على شيء: نعمةٌ ونقمةٌ.

شدَّةٌ ورخاءٌ.

غنىً وفقرٌ.

هذه هي النهاية:

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

الرِّفْقُ يُعينُ عَلَى حُصُولِ الْمَقْصُودِ

الرفقُ شفيعٌ لا يُرَدُّ في طلبِ الحاجاتِ.

ولكَ أن تعلم أن الطَّريق الضَّيق بين جِدارين، الذي لا يَتسع إلا لمرور سيارةٍ واحدةٍ فَحَسْبُ، لا تدخلُها هذه السَّيارة إلا برفقٍ من قائدِها وحذرٍ وتوقٍّ.

بينما لو أقبل بها مُسرعًا وأراد المُرور من هذا المَكان الضيقِ لاصطدمَ يمْنةً وَيسْرَةً وتعطلتْ سيارتُه.

والطريقُ لم يزِد ولم ينقصْ، والسيارةُ هي هي، لكنَّ الطَّريقة هي التي اختَلفت، تلك برفقٍ وهذه بشدَّةٍ.

والشَّجرةُ الصغيرةُ التي نغرسُها في حوضِ فناءِ أحدِنا، إذا سكبت عليها الماء شيئًا فشيئًا تشربُ منه وينفعُها.

فإذا أخذت كميةً من هذا الماء بعينهِ وحجْمه وألقيته دفعةً واحدة لاقتلعت هذه النبتة من مكانِها.

إن كمية الماءِ واحدةٌ ولكن الأسلوب تغيَّر.

إنَّ منْ يخلعُ ثوبه برفقٍ يضمنُ سلامة ثوبِه، خلاف من يجذِبُه بقوةٍ ويسحبُه بسرعةٍ، فإنه يشكو من تقطُّعِ أزرارِه وتمزُّقِهِ.

إنَّ الرفق في التعاملِ تُذعنُ له الأرواحُ، وتنقادُ له القلوبُ، وتخشعُ له النفوسُ.

إنَّ الرفيق من البشرِ مِفتاحٌ لكلِّ خَيْرٍ، تستسلمُ له النفوسُ المستعصية، وتثوبُ إليه القلوبُ الحاقدةُ.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾.

وفي الختام، تقبل تحياتي، ولك سلامي مقرونا بدعائي لك بالسعادة

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله أنت أستغفرك وأتوب إليك

***